الفصل الأول
النشأة والتكوين

ولد حافظ ابراهيم فى دهبية راسية على شاطئ النيل قرب قناطر ديروط فى صعيد مصر كان يسكنها والده ابراهيم افندى فهمى أحد المهندسين المشرفين على هذه القناطر مع زوجته الست هانم كريمة احمد البورصة لى بك، وكأن القدر قد شاء ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل ، وتاريخ ميلاد حافظ يكتنفه الغموض، فلم يعرفه أحد بالضبط كما أقر بذلك حافظ نفسه أمام القومسيون الطبى عندما أريد تعيينه فى دار الكتب وإن كان من المؤكد أن ميلاده حدث فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ولم يعش والد حافظ طويلا بعد ولادته ولم يرزق ولدا غيره إذ توفى وحافظ فى الرابعة من عمره، ففقد حنان الأبوة وحرم دفء الأسرة المستقرة، وترعرع بين أحضان الفاقة واليتم والبؤس والقلق فانتقلت به والدته إلى القاهرة ، ونزلت عند أخيها محمد نيازى الذى قام على تربيته وتولى أمره، ولما أهلت السن القانونية حافظ لدخول المدرسة ، وتحصيل العلم تلقى تعليمه الأولى فى عدد من المدارس الابتدائية فدخل المدرسة الخيرية بالقلعة وكانت مكتبا تعلم فيه القراءة والكتابة وشيئا من العربية والحساب ثم دخل مدرسة القربية الابتدائية وتحول إلى مدرسة المبتديان، ولما أنتهى من تعليمه الابتدائى التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بدرب الجماميز، ولكن لم يطل مقامه فيها حيث انتقل مع خاله إلى طنطا حيث كان يعمل مهندسا للتنظيم هناك، ولم تكن قدرته المالية تسمح له ان يستبقى

حافظ بالقاهرة لإتمام تعليمه بها، مما أدى إلى توقف حافظ عن متابعة التعليم، وكان عمره وقتذاك ستة عشر عاما مما طبع فى نفسه الحزن، وجعله يمتلك نفسا بائسا، وقلبا كسيرا وروحا لايقبل عليها السرور فعاش عيش الإهمال والملل وضاق بالحياة التى حرمته من التعليم ، وأصبح لا يكترث بها كما ازداد اختلاطه بالطبقات الشعبية وأحس بما تعانيه من متاعب وجهد خلال بحثها عن لقمة العيش، وخلال ذلك وجد فى نفسه ميلا إلى الأدب وكتابة الشعر متأثرا بالشاعر محمود سامى البارودى حيث كانت الطبيعة قد حبته بالموهبة الروحانية فأخذ ينهل من دواوين الشعر ، ويربى نفسه بالمطالعة وشجعه على ذلك الشيخ عبد الوهاب النجار الطالب بالمعهد الأحمدى بطنطا الذى لم يلبث أن كان مغرما بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف وسرعة خاطر، والذى كان حافظ يبرز فيه بواعث من طبعه وروحه ولا يستلهم منه سوى ذكرياته المليئة بالألم والحرمان. واستمر حافظ فى تغذية ملكاته ومواهبه فثقّفَ نفسه ثقافة حرة واسعة النطاق، وغير مقيدة بمنهج دراسى أو غيره ، فلا عمل له ولا مدرسة إلا مدرسته التى أنشأها بنفسه لنفسه، وإلى جانب ذلك فقد رسبت فى نفس حافظ الحياة الشعبية فى رحاب السيد البدوى بين الدراويش والأدعياء مما جعل بعض أشعاره تختلط بتعبيرات جارية على أفواه العامة. وظل حافظ على ذلك الحال بلا عمل يتكسب منه حيث لم يكن قد حصل على شهادة تضمن له عملا حكوميا، حيث اتخذ لنفسه من قراءة الأدب عملا، ومن شعره صديقا ، ولما كانت مهنة الأدب فى ذلك الوقت لم تكن تحقق كسبا يتعيش منه، فلم يلبث أن ضاق به خاله ودب الخلاف بينهما فقرر حافظ أن

يهجر بيت خاله بعد أن كتب له بيتين من الشعر يدلان على ما فى نفسه من ألم عميق وهما:

ثقلت عليك مؤونتى أنى أراها واهية

فافرح فانى ذاهب متوجه فى داهية

إن هذا الشعر البسيط يؤكد الموقف الأليم الذى تعرض له حافظ حيث أصبح بلا عمل ولا مأوى ، وكان أحيانا يتضور جوعا فلا يجد ما يأكله فيتمنى أن يموت، وكثيرا ما كان يشكو الدهر وأحداث الزمن ويندب سوء حظه وما كان فى نفسه من حزن عميق وألم كامن ومن ذلك قوله:

عجبت لعمرى كيف مد فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا

وللموت مالى قد أراه مباعدا وجل مرادى ان أوسد حالا

فللموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

وخلال ذلك بدأ حافظ يبحث عن عمل ليقتات منه، ولما كانت مهنة المحاماة فى ذلك الوقت لا تحتاج إلى شهادة بل إلى شخص فصيح اللسان وهذا ما يتوفر فى حافظ فقد عمل حافظ مساعدا لأحد المحامين فى طنطا وكان يسافر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا، ويترافع فى القضايا ويكسبها غير أن طبيعته القلقة لم تكن تؤهله للصبر فى تمحيص القضايا وكتابة المذكرات وإعدادها، فترك هذه المهنة، وسافر إلى القاهرة حيث عثر على بارقة أمل جديدة، بعد أن أعلنت الكلية الحربية عن قبول دفعة جديدة بها، وكانت فى ذلك الوقت تقبل حاملى الابتدائية فالتحق بها وكان لا يزال فى فتوة الصبا ومستهل الشباب حتى تخرج فيها عام ١٨٩١ وعين برتبة الملازم ثان وبقى فى هذه الوظيفة بالقاهرة ثلاث سنوات، ولما كانت

وزارة الحربية وقتذاك تمد الداخلية بضباطها حيث لم تكن كلية الشرطة قد أنشئت بعد، فقد أعارت حافظ للداخلية فى وظيفة ملاحظ ببنى سويف، ونظرا لأن هذه الوظيفة لا تلائم طبعه ، فقد ضاق بها ، وبما يتعرض له رجال الأمن فى الأقاليم، مما دفعه إلى تركها والعودة إلى الجيش ومما يذكره حافظ عن سبب ضيقه من هذه الوظيفة ونفوره منها قوله كنت نائما فى بيتى وإذا برسالة من شيخ البلد فى احدى القرى تقول "وقعت الحائط وزهقت الأرواح " فأسرع بالانتقال إلى القرية حيث وصل إلى مكان الحادث فوجد أن جدارا قد سقط وقتلت تحته ثلاث دجاجات فسأل حافظ شيخ البلد أين الأرواح التى ازهقت ؟ فرد عليه متعلثما والله يا سيدى إنى تشاحنت مع نسائى وحلفت بالطلاق لأحضرن البوليس، وأخذت أتلمس الوسيلة لذلك حتى علمت أن جدارا قد وقع وماتت تحته ثلاث دجاجات فأرسلت هذه الرسالة ليحضر إلينا البوليس فأبر بالقسم العظيم ، فقال له حافظ والله لتكونن روحك إحدى هذه الأرواح التى زهقت كما تزعم وانهال على شيخ البلد ضربا حتى كان يموت بين يديه. ترك حافظ وظيفته وعاد إلى الجيش وخلال ذلك ألحق بحملة كتشنر المرسلة إلى السودان عام ١٨٩٦، وقضى بعض الوقت فى سواكن والخرطوم، ومن هناك أرسل إلى أصدقائه بمصر شعرا قويا رصينا ولما كانت إقامته بالسودان موحشة ومؤلمة بالنسبة له خاصة وأنه لم يطق الجو هناك فقد كتب إلى أحد أصدقائه يشكو الوحدة ويتشوق إلى مصر بعد أن عرفت نفسه ذل الكسير المهيض الجناح وبعد أن تحطمت آمال أمته فى الثورة العرابية ، فتحدث عن السودان حديث الساخط الباكى بقوله:

رميت بها على هذا التبـــاب وما أوردتهـــا غير الســـراب
وما حملتهـــا إلا شقـــــاء تقاضـــينى به يـــوم الحســـاب
جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليـــك جنى أبى فدعى عتابى
فلولا أنهـــم وأدوا بيانـــــى بلغت بـــك المنى وشفيت ما بى
سعيت وكم سعى قبلى أديب فآب بخيبـــة بعد اغتـــــراب
وما أعذرت حتى كان نعلى دمـــا ووسادتى وجه التـــــراب
وحتى صيرتنى الشمس عبدا صبيغا بعـــد ما دبغت إهابـــى
وحتى قلم الإمـــلاق ظفرى وحتى حطـــم المقدار نابـــى
متى أنا بالغ يا (مصر) أرضا أشم بتربهـــا ريح المـــــلاب
رايت ابن البخار على رباها يمر كأنه شـــرخ الشبـــــاب
كأن بجوفه أحشاء صـــــب يؤجج نارها شـــوق الإيـــاب
إذا مالاح ساعلنا الدياجـــــى أبرق الأرض أم بـــرق السحاب

وزاد حاله سوءا فى السودان بعد كراهية كتشنر له، وبعدْ أن رأى سوء معاملة الإنجليز للمصريين، فحاول أن يعبر عن ثورته إزاء هذا الظلم بأن شارك فى جمعية سرية مع بعض زملائه من الضباط ولما انكشف أمـــره، بعد أن وشى به أحد الوشاه إلى الانجليز بأنه يحرض على الثورة ضدهم، تمت محاكمته أمام مجلس عسكرى وأحيل إلى الاستيداع وعاد إلى مـــصر وهو فى حالة نفسية صعبة خاصة وأن نفسه الشاعرة لا تقبل الظلم فأصبح عاطلا ، مما أثر فى نفسه تأثيرا بالغا، وضاقت الدنيا فى وجهه فأخذ يبث شكواه فى كل مكان، يلعن البؤس والشقاء وعدم استقرار الأحوال كما أخذ

يتلمس لنفسه طريقا فى الحياة يعيش فيه، وظل يشكو أيامه ويضحك من شقائه، ويستمر فى الناس، ويتندر عليهم حتى صار نديما لكل مجلس وخلال ذلك تقرب من رجالات الحركة الوطنية وبعض أفراد الطبقة المثقفة أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد وعلى يوسف وحفنى ناصف وغيرهم ، وكانت مجالسهم تعد من أرقى المجالس التى تطرح فيها المسائل السياسية والاجتماعية والعلمية وتعرض فيها الحلول المختلفة فقد أستطاع حافظ أن يكون صداقات معهم بعد أن أعجبتهم فيه الصراحة النادرة ، والسخرية اللاذعة وأحاديثه التى ترتاح إليها النفس وبدأ يتعرف منهم على الآراء السياسية، وأن يكون له فيها رأى خاص أفرغه بعد ذلك فى أشعاره، وخلال ذلك توثقت صلته بالشيخ محمد عبده خاصة بعد أن قدم له قصيدة هنأه فيها عندما أسند إليه منصب الإفتاء فى سنة ١٨٩٩ نذكر منها:

لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل

لقد ظفر الإسلام منك بأفضل

فما حل عقد المشكلات بحكمة

سواك ولا أربى على كل حول

ثم صحب الشيخ محمد عبده بعد ذلك فى كثير من تنقلاته فى الريف للدعوة إلى فعل الخير أو للترويج لحركة الإصلاح واشتدت بينهما أواصر المودة حتى غبطه الكثيرون على ذلك وحول هذا الموضوع يقول حافظ " لقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره ، وأرد نهاره، والتقط ثماره" وخلال ذلك نظم حافظ مجموعة من أجود قصائده وأكثرها صدقا

وإخلاصا، وتألقت شاعريته وعرف له معاصروه فضله . وفجأة ابتسمت الحياة لحافظ حيث تم تعينيه فى عام ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبى بدار الكتب الملكية بعد أن توسط له فى ذلك "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف وحول ذلك يذكر الدكتور طه حسين فى كتابه حافظ وشوقى " إنه كان يقضى صباحه فى دار الكتب يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة والعامة.

وفى هذه المجالس كان حافظ يجلس مع أصدقائه من السياسيين والمفكرين يتحدث فى السياسة وفى أحوال البلاد وطريقة إصلاحها مازجا ذلك بالنكات والنوادر التى تعبر عن شكواه من البؤس والدنيا والقدر ، وقد جمع هذه الآراء التى عبر عنها بأجلى بيان فى كتابة "ليالى سطيح" وهو كتاب كتبه نثرا وبه بعض فقرات من الشعر وجعل منه حوارا بين نفسه وغيره من المثقفين وبين الفيلسوف الناسك سطيح الذين كانوا يسمعون كلامه دون أن يتراءى للناظرين وقد تناول حوارهم شئون مصر ونقدها نقدا مرا، فهو مثلا يسخر من مشايخ الطرق الصوفية ويصفهم بأنهم أسعد الناس فى مصر لأن الناس تسرف فى طاعتهم وتبجيلهم وهم أحياء، ويشيدون لهم القبور ويلتمسون منهم البركة بعد مماتهم. وينتقد حافظ فى هذا الكتاب مبالغة الناس فى خدمة الحكومة، ويدعو إلى إصلاح التعليم وإنشاء جامعة لتنوير المصريين وتعريفهم بحقوقهم ، كما ينتقد الصحف العميلة للاحتلال ونظم الاستبداد ويدعو إلى الحفاظ على اللغة العربية وبعث الحياة فيها . وإلى جانب ذلك فقد اشترك بقلمه فى الأحداث التى

هزت بلاده ، وكان من خير شعره ما قاله فى حادث دنشواى وفى رثـاء مصطفى كامل وسعد زغلول ، وإلى جانب ذلك فقد كان دائما يصرخ فـى وجوه المصريين طالبا منهم التمسك بلغتهم العربية وبوطنيتهم المصرية.

ولما كان حافظ ملما باللغة الفرنسية، فقد مكنه ذلك من الاطـلاع على شئ من آدابها، وقد ترجم " البؤساء" لفيكتور هوجو" وترجم بعـض مقالات لجان جاك روسو واشترك مع الشاعر خليل مطران فـى ترجمـة كتاب "موجز الاقتصاد" وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الانجليـزى خاصة ما كتبه شكسبير ومع كل ذلك فقد كانت اللغة العربية هى مـصدر ثقافته ومنبع تجاربه الواسعة.

حقيقة لقد كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفـظ الكثير من الأزجال والمواويل الشعبية غير أن اتصاله بالشيخ محمد عبـده وحضوره بعض دروسه التى يلقيها على تلاميذه فى منزله دفعه إلـى أن يتحول إلى مناصرة الفصحى، وأنشد قصيدته المشهورة متحدثا بلسان اللغة العربية:

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

كما أن حبه لمصر فاق كل حب ، ذلك الحب الذى جسده فى قـصيدته المعروفة " مصر تتحدث عن نفسها عام ١٩٢١" وشـدت بهـا أم كلثـوم مجسدة شموخ مصر وكبرياؤها :

كم بغـت دولة على وجـارت

ثم زالـت وتـلك عقبى التعدى

وظل حافظ يعمل فى دار الكتب حتى خرج إلى المعاش فى عام ١٩٣٢ يكتب أشعاره الوطنية والاجتماعية بشكل اهتزت لـــه القلـــوب وتحركـــت الأفئدة حتى لُقّبَ بشاعر الشعب الثائر الذى ارتبطت عبقريته الشعرية مـــع بيئته وأحداث حياته حتى وافته المنية فى ٢١ يوليو ١٩٣٢ أى بعد خمسة اشهر من خروجه إلى المعاش، وشيعت جنازته وسارت مصر وراءه بعد أن لبست ثوب الحداد، وتحطم فى نفسها آمال كبار كانت ترتجيها من فيض شعره.

obeikan.com